السمية تسري إلى الدم، فتنبعِثُ في العروق والمجاري حتى تصِلَ إلى القلب، فيكون الهلاكُ، فالدمُ هو المنفذ الموصل للسم إلى القلب والأعضاء، فإذا بادر المسمُومُ، وأخرج الدمَ، خرجت معه تلك الكيفية السمية التي خالطته، فإن كان استفراغاً تاماً لم يضرَّه السم، بل إما أن يذهب، وإما أن يضعف فتقوى عليه الطبيعة، فتبطل فعله أو تضعفه.

استشهاده ﷺ بالسم

ولما احتجم النبي ﷺ، احتجم في الكاهل، وهو أقربُ المواضع التي يمكن فيها الحجامة إلى القلب، فخرجت المادةُ السمية مع الدم لا خروجاً كلياً، بل بقي أثرها مع ضعفه لما يُريد الله سبحانه من تكميل مراتب الفضل كُلِّها له، فلما أراد الله إكرامَه بالشهادة، ظهر تأثيرُ ذلك الأثر الكامِن من السم لِيقضي الله أمراً كان مفعولاً، وظهر سِرُّ قوله تعالى لأعدائه من اليهود: ﴿أَوَ كُلَّمَا جَاءَكُم رَسُولٌ بِما لا تَهْوى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكبَرْتُم فَفَرِيقاً كَذَّبتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُون﴾ [البقرة: ٨٧]، فجاء بلفظ كذبتم بالماضي الذي قد وقع منه، وتحقق، وجاء بلفظ: «تقتلون» بالمستقبل الذي يتوقعونه ويَنتظرونه، والله أعلم.

فصل

في هديه ﷺ في علاج السِّحر الذي سحرته اليهُود به

قد أنكر هذا طائفة من الناس، وقالوا: لا يجوزُ هٰذا عليه، وظنوه نقصاً وعيباً، وليس الأمر كما زعموا، بل هو مِن جنس ما كان يعتريه ﷺ من الأسقام والأوجاع، وهو مرض من الأمراض، وإصابته به كأصابته بالسُّم لا فرق بينهما، وقد ثبت في «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: سُحِرَ

= الماء كما هو وبذلك تكون المعدة أصبحت خالية من المادة السمية، ويعطى بعد ذلك مسهلاً لإخراج ما تسرب من المادة السمية من الشرج.

obeikandl.com

رسول الله ﷺ حتَّى إنْ كان لَيُخَيَّلُ إليه أنَّه يأتي نِساءَه، وَلَمْ يأتِهِنَّ، وذلك أشدُّ ما يكون مِن السحر[1].

قال القاضي عِياض: والسحر مرض من الأمراض، وعارض من العلل يجوز عليه ﷺ، كأنواع الأمراض مما لا يُنكر، ولا يَقْدَحُ في نبوته، وأما كونه يُخيَّل إليه أنه فعل الشيء ولم يفعله، فليس في هذا ما يدخل عليه داخلة في شيء من صدقة، لقيام الدليل والإِجماع على عصمته من هٰذا، وإنَّما هذا فيما يجوز طُرُوُّه عليه في أمر دنياه التي لم يُبعث لسببها، ولا فُضِّل مِن أجلها، وهو فيها عُرضة للآفات كسائر البشر، فغيرُ بعيد أنه يُخيَّلَ إِليه مِن أمورها ما لا حقيقةَ له، ثم ينجلي عنه كما كان.

علاج السحر

والمقصود: ذِكر هديه في علاج هذا المرض، وقد رُوي عنه فيه نوعان:

استخراج السحر وإبطاله

أحدهما ــ وهو أبلغهما ــ: استخراجه وإبطاله، كما صحَ عنه ﷺ أنه سأل ربه سبحانه في ذٰلك، فدل عليه، فاستخرجه مِن بئر، فكان في مِشْطٍ ومُشَاطة، وجُفِّ طَلْعَةِ ذَكَر[2]، فلما استخرجه، ذهب ما به، حتى كأنما أُنْشِطَ مِن عِقال[3]، فهذا من أبلغِ ما يُعالج به المطبوبُ، وهذا بمنزلة إزالةِ المادة الخبيثة وقلعها مِن الجسد بالاستفراغ.

الاستفراغ في المحل الذي يصل إليه أذى السحر

والنوع الثاني: الاستفراغ في المحل الذي يصل إليه أذى السِّحر، فإن للسحر تأثيراً في الطبيعة، وهيجان أخلاطها، وتشويش مزاجها، فإذا ظهر أثره في

---

(١) أخرجه البخاري ١٠/١٩٩ في الطب: باب هل يستخرج السحر، ومسلم (٢١٨٩) في السلام: باب السحر.

(٢) هو من تمام حديث عائشة المتقدم، والمشط معروف، والمشاطة: هي الشعر الذي يسقط من الرأس أو اللحية عند تسريحه، والجف: وعاء طلع النخل، وهو الغشاء الذي يكون عليه، ويطلق على الذكر والأنثى، ولذا قيده في الحديث بقوله «طلعة ذكر»

(٣) انظر «الفتح» ١٠/٢٠٠.

obeikandi.com

عضو، وأمكن استفراغ المادة الرديئة من ذلك العضو، نفع جداً.

وقد ذكر أبو عبيد في كتاب «غريب الحديث» له بإسناده، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، أن النبي ﷺ احتجم على رأسه بِقَرْنٍ حين طُبَّ[1]. قال أبو عبيد: معنى طبَّ: أي سحر.

وقد أشكل هذا على من قل علمه، وقال: ما للحجامة والسحر، وما الرابطة بين هذا الداء وهذا الدواء، ولو وجد هذا القائل أبقراط، أو ابن سينا، أو غيرهما قد نص على هذا العلاج، لتلقاه بالقبولِ والتسليم، وقال: قد نصَّ عليه من لا يُشك في معرفته وفضله.

فاعلم أن مادة السحر الذي أصيب به ﷺ انتهت إلى رأسه إلى إحدى قُواه التي فيه بحيث كان يُخيل إليه أنه يفعل الشيء ولم يفعله، وهذا تصرف من الساحر في الطبيعة والمادة الدموية بحيث غلبت تلك المادة على البطن المقدم منه، فغيرت مزاجه عن طبيعته الأصلية.

والسحر: هو مركب من تأثيرات الأرواح الخبيثة، وانفعال القُوى الطبيعية عنها، وهو أشدَّ ما يكون من السحر، ولا سيما في الموضع الذي انتهى السِحرُ إليه، واستعمالُ الحجامة على ذلك المكان الذي تضررت أفعالُه بالسحر مِن أنفع المعالجة إذا استُعْمِلَتْ على القانُونِ الذي ينبغي.

قال أبقراط: الأشياء التي ينبغي أن تُسْتَفْرَغَ يجب أن تُستفرغ مِن المواضع التي هي إليها أميلُ بالأشياء التي تصلُح لاستفراغها.

وقالت طائفة من الناس: إن رسولَ الله ﷺ لما أُصيب بهذا الداءِ، وكان يُخيَّل إليهِ أنه فعل الشيء ولم يفعله، ظنَّ أن ذلك عن مادة دموية أو غيرها مالت إلى جهة الدماغ، وغلبت على البطن المقدَّم منه، فأزالت مِزاجه عن الحالة

---

(١) لا يصح.

الطبيعية له، وكان استعمالُ الحجامة إذ ذاك من أبلغ الأدوية، وأنفع المعالجة، فاحتجم، وكان ذلك قبل أن يُوحى إليه أن ذلك من السحر، فلما جاءه الوحيُ من الله تعالى، وأخبره أنه قد سُحِرَ، عدل إلى العِلاج الحقيقي وهو استخراجُ السحر وإبطالُه، فسأل الله سبحانه، فدلَّه على مكانه، فاستخرجه، فقام كأنما أُنْشِطَ مِن عِقال، وكان غايةُ هٰذا السحر فيه إنما هو في جسده، وظاهِر جوارحه، لا على عقِله وقلبِه، ولذلك لم يكن يعتقدُ صحة ما يُخيَّل إليه من إتيان النساء، بل يعلم أنه خيال لا حقيقة له، ومثلُ هذا قد يحدُثُ من بعض الأمراض، والله أعلم.

فصل

علاج السحر بالأذكار والآيات

ومن أنفع علاجات السحر الأدوية الإلٰهية، بل هي أدويتُه النافعة بالذات، فإنه مِن تأثيرات الأرواح الخبيثة السفلية، ودفعُ تأثيرها يكون بما يُعارِضها ويُقاومها من الأذكار، والآيات، والدعواتِ التي تُبْطِلُ فعلها وتأثيرها، وكلما كانت أقوى وأشدّ، كانت أبلغَ في النُّشْرةِ[1]، وذٰلك بمنزلة التقاء جيشين مع كل واحدٍ منهما عُدَّتُه وسلاحُه، فأيُّهما غلب الآخر، قهره، وكان الحكم له، فالقلبُ إذا كان ممتلئاً من الله مغموراً بذكره، وله من التوجهات والدعوات والأذكار والتعوذات ورد لا يُخِلُّ به يُطابق فيه قلبه لسانه، كانَ هذا مِن أعظم الأسباب التي تمنع إصابة السحر له، ومن أعظم العلاجات له بعد ما يُصيبه.

وعِند السحرة: أن سِحرهم إنما يَتِمُّ تأثيره في القلوب الضعيفة المنفعِلة، والنفوس الشهوانية التي هي معلقة بالسُّفليات، ولهذا فإن غالب ما يؤثر في النساء، والصبيان، والجُهال، وأهل البوادي، ومن ضَعُف حظه من الدين

(١) النشرة ــ بالضم ــ: ضرب من الرقية والعلاج يعالج به من كان يظن أن به مساً من الجن، سميت نشرة، لأنه ينشّر بها عنه ما ضاره من الداء، أي: يكشف ويزال.

والتوكل والتوحيد، ومن لا نصيبَ له من الأوراد الإلهية والدعوات والتعوُّذات النبوية.

وبالجملة: فسلطانُ تأثيرِه في القُلوب الضعيفة المنفعلة التي يكون ميلُها إلى السُّفليات، قالوا: والمسحورُ هو الذي يُعين على نفسه، فإنا نجد قلبه متعلقاً بشيء كثير الالتفات إليه، فيتسلط على قلبه بما فيه مِن الميل والالتفات، والأرواح الخبيثة إنما تتسلطُ على أرواح تلقاها مستعِدَّة لتسلُّطها عليها بميلها إلى ما يناسب تلك الأرواح الخبيثة، وبفراغها من القوة الإلهية، وعدم أخذها للعدة التي تُحاربها بها، فتجدها فارغة لا عدة معها، وفيها ميل إلى ما يُناسبها، فتتسلط عليها، ويتمكَّن تأثيرُها فيها بالسحر وغيره، والله أعلم.

فصل
في هديه ﷺ في الاستفراغ بالقيء

روى الترمذي في «جامعه» عن معدان بن أبي طلحة، عن أبي الدرداء، أن النبي ﷺ قاء، فتوضَّأ فلقيتُ ثوبانَ في مسجد دمشق، فذكرتُ له ذلك، فقال: صَدَقَ، أنَا صَبَبْتُ له وَضُوءَه. قال الترمذي: وهذا أصح شيء في الباب(١).

أصول الاستفراغ

القيء: أحد الاستفراغات الخمسة التي هي أصول الاستفراغ، وهي الإسهال، والقيء، وإخراج الدم، وخروج الأبخرة والعرق، وقد جاءت بها السنة.

---

(١) أخرجه أحمد ٦/٤٤٣، والترمذي (٨٧) وأبو داود (٤٣٨١) والدارقطني ١/٥٧ و٢٣٨، والطحاوي ١/٣٤٧، ٣٤٨، والحاكم ١/٤٢٦، وكلهم رووه بلفظ «قاء فأفطر» إلا الترمذي، فإنه جاء فيه «قاء فتوضأ» وعند أحمد في رواية ٦/٤٤٩ عن أبي الدرداء قال: استقاء رسول الله ﷺ فأفطر، فأتي بماء فتوضأ» وصححه الحاكم وابن مندة والترمذي.